رضا المَولَى

في رحلة الحج الأُولَى

إبراهيم محمد خير يوسف

الحمد لله الذي فرض الحج على عباده، والصلاة والسلام على نبينا محمد الذي علمنا مناسكه، وعلى آله وأصحابه الحريصين على أدائه، وبعد..

فقد بدأت رحلتي إلى بيت الله الحرام في اليوم الثاني من شهر ذي الحجة، من عام 1435 هـــ، وسبقتها أمور:

فمنها أن الوالد كان مهمومًا لكوني الوحيد الذي لم أحجَّ من بين أولاده، وأنا طالب في السنة الثانوية الأخيرة، فكان يدعو الله أن يمكنه من الحج ليصحبني معه، وقد دخل في الشيخوخة، وزحف إليه الضعف، وأثَّرت فيه أمراض صاحبته منذ زمن، فقدَّر الله أن يُدعى إلى "مؤتمر مكة المكرمة الخامس عاشر"، فطلب من هيئة المؤتمر أن يصحبني معه فقبلَت. والحمد لله رب العالمين.

وحمدت الله تعالى على صحبة الوالد في هذه الحجة المباركة، لأقوم بخدمته فيما لا يقدر عليه، أو يجد صعوبة فيه، فهو ليس من محبي السفر أصلاً، وخاصة بعد الكِبَر، كما أصبحتُ له كالترجمان لضعف في سمعه. ويقول إن السفر يخرِّب برنامجه العلمي، ويقلِّص بحوثه، ويكون عائقًا أمام مراجعه.

ثم إن الوالد سماني بهذا الاسم، حبًّا وإجلالاً لخليل الله أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، الذي أثنى الله تعالى عليه كثيرًا في كتابه الكريم.

وقال لي: كنتُ يا بني في إحدى العمرات فرحًا بما خططتُ له، من أنني سأرفعك بيدي وأنا أطوف بك بيت الله الحرام وأنت طفل، وأقول: يا رب، هذا إبراهيم، الذي سميته باسم نبيك الذي بنى بيتك هذا، أولَ بيت بُني لعبادتك، {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ} [سورة آل عمران: 96]. ولكن هجم علي مرض فلا أدري كيف أكملتُ الطواف، وربما رفعتك مرة أو مرتين وقلت ما قلت، وقد أُسعِفتُ إلى المستشفى في ذلك اليوم.

قال: ودعوتُ الله أن يحفظك، ولا يحرمكَ خصالاً آتاها نبيَّهُ إبراهيم عليه السلام بما يناسبك، وأن يجعلك ممن يرثُ علمي، ويزيدك علمًا وتقوى.

وجرت الأمور على التيسير بفضله تعالى، إلا ما كان من أمر تصريح الحج، الذي لا بدَّ لكل حاج في الداخل من أن يحصل عليه من إدارة الجوازات العامة، وإلا لم يسمح له بالحج.

واقترب وعد المؤتمر، وجاء اليوم الذي تقلع فيه الطائرة، وهو يوم الجمعة الرابع من ذي الحجة، ولم يصدر التصريح؛ لأمور إدارية في الجوازات، وما كان بالإمكان تأجيل الحجز في ظروف الزحمة في الأيام القريبة من الحج، فلبسنا لباس الإحرام في البيت، ومضينا متوكلين على الله تعالى.

وصلنا إلى مطار الرياض، وأخذت جولة فيه لأتعرف معالمه الجديدة، ومستحدثاته، وحركة المسافرين التي لا تنتهي قدومًا ومغادرة.

كان الجميل في الطائرة أنها تبث على شاشتها بين كل عدة دقائق المسافة الباقية للوصول إلى الميقات، ولكننا كنا قد نوينا قبل الميقات بكثير خشية تجاوزه.

وكان على يميني، وعلى يسار أبي، شابان يتابعان أفلامًا أجنبية، فيها لقطات فاحشة وقبيحة.

وصلنا إلى جدة، بوابة الحرمين الشريفين، في الساعة العاشرة ليلاً تقريبًا، وجاء سائق الحافلة الخاص بالرابطة، وتفاجأ بأننا لا نحمل تصاريح الحج، وكان في الحافلة مدعوون آخرون، فكنا معهم، واسمانا موجودان في قائمة المدعوين للمؤتمر.

وانطلقنا إلى مكة المكرمة... وحفظنا الله، ووصلنا بالسلامة، والحمد لله على عافيته. وقد صدرت التصاريح في اليوم التالي.

نزلنا في سكن الرابطة بمنى، ومررنا على مكتب العلاقات العامة والحركة لإثبات قدومنا، ولكنهم لم يجدوا اسمي ولا اسم الوالد عندهم، فتحيروا ماذا يفعلون، فأخرج الوالد أوراق المؤتمر من محفظته وفيها اسمه، فصوروها، وحولونا إلى قسم السكن، وحملوا أمتعتنا، وأصعدونا إلى الطابق الثالث، فكان نصيبنا غرفة صغيرة، ملتصقة بأحد جبال منى، في أولها حمّام، وثلاثة أسرَّة، وخزانة ثياب، وثلاجة صغيرة، ومكيف قوي، وطاولة صغيرة لا تتجاوز نصف المتر.

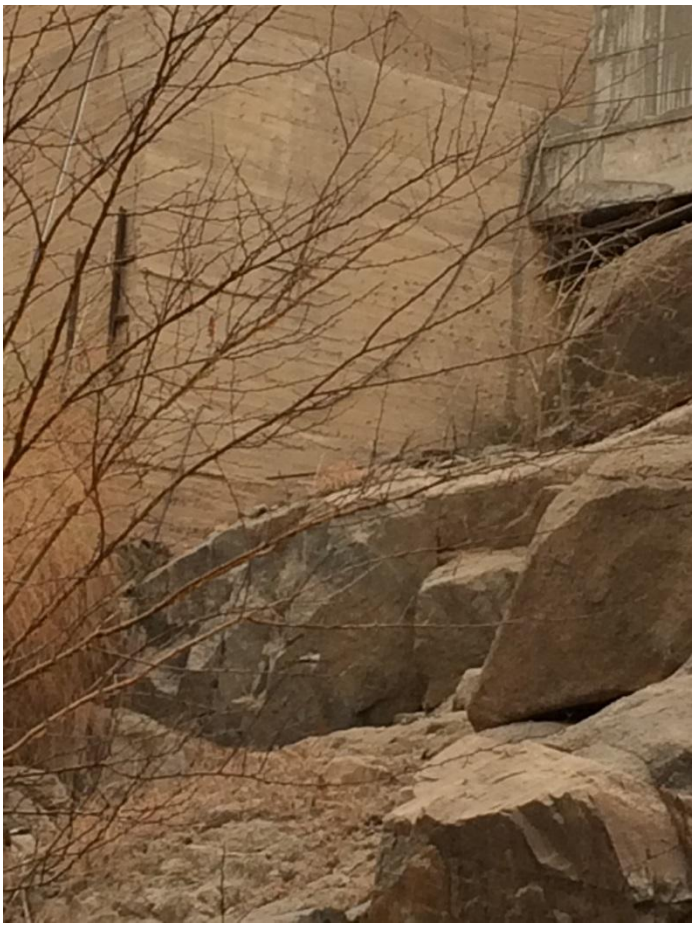

سكنا في غرفة كانت تطل على أحد جبال منى

وقال لنا العامل: سيسكن معكم شخص آخر. فلم تمرَّ دقائق حتى دخل علينا رجل، فسلم وقال: أنا مغربي، فرحبنا به، وقال أبي: أعاننا الله على اللهجة، سنتكلم الفصحى.

وبعد حديث قصير قال: إنني مقيم في مدريد منذ أربعين عامًا، فقال الوالد: وكم يشترطون للتجنس؟ قال: عشرة أعوام مستمرة، لا يتخللها سفر إلى الخارج، ففال الوالد: إذًا أنت متجنس بالجنسية الإسبانية، وقد دُعيتَ إلى الحج لكونك إسبانيًا وليس مغربيًا؟ فقال: نعم.

ولم يكن من المدعوين للمؤتمر، وإنما حاجًّا على نفقة الملك.

وسكن الرابطة لضيوفها وضيوف الملك (العاديين).

اقتربت الساعة من الثانية بعد منتصف الليل، وأعلنوا أن الحافلة ستنطلق إلى الحرم في الثالثة والنصف، فما كان هناك مجال للنوم، ولا للبحث عن طعام، فبقينا نغفو بين فينة وأخرى وننتظر، ونحن الثلاثة حريصون على ألا تسبقنا الحافلة إلى الحرم، وذلك لنؤدي مناسك العمرة كاملة، تقدمة لحج التمتع. ولكن الحافلة لم تنطلق إلا في الرابعة، قبل الفجر بنصف ساعة.

نزلنا في موقف الحافلات، وصعدنا في درج إلى أعلى، لنرى الحرم الشريف، فكانت السلالم الكهربائية أقرب إلينا، فحملنا السلم تلو الآخر حتى رأينا أنفسنا في سطح الحرم، وازدحام الحجاج في كل منطقة فيه، وفي كل الأوقات تقريبًا، فقلنا: نطوف طواف القدوم، وإن كان أطول طواف في الحرم.

طفنا حول الكعبة طواف القدوم، والإفاضة، والوداع

وقد امتدَّ بنا الوقت في الطواف نحو ساعتين أو أكثر، ونحن نزداد ضعفًا، دون طعام ولا نوم، وأمامنا أيضًا سعي بين الصفا والمروة في سبعة أشواط، فقلنا: لا بد أن نكمل هذا السعي في مدة ساعة، حتى لا تتركنا الحافلة وتمضي.

وأتممنا السعي بفضل الله، ولكن الذي حدث، أن بعضنا ضاع من بعض بسبب التصوير وما إليه، فلما اجتمع شملنا لم نعرف مكان الحافلة إلا بعد لأي، ولم نجدها هناك، بسبب تأخرنا، وما كان يخطر ببالنا سوى الراحة، فقد نالنا من التعب الكثير، حتى لم تعد أرجلنا تطاوعنا على المشي إلا بصعوبة.

فاستأجرنا سيارة لتوصلنا إلى الرابطة... نزلنا، ولكننا في شك من هيئة البناية التي رأيناها للرابطة، فقلنا: لعله باب آخر لها، ولكن تبين أننا كنا في سكن الرابطة بمنى، عند مسجد الخيف، وهذا الذي أتيناه هو مقر إدارة الرابطة، وبينهما مسافة طويلة!

فاضطررنا أن نستقلَّ سيارة للرابطة من هناك إلى السكن بمنى.

ولما نزلنا وأردنا الدخول منعنا الموظف، لأننا لا نحمل شارة الرابطة، وهي قلادة طويلة توضع في العنق، فخاب ظننا أن نستريح مرة أخرى من التعب والإرهاق.

ولما طلبنا الشارة لم يجدوا اسمينا مرة أخرى، ذلك أنهم لم يصوروا الأوراق السابقة لهم، بل لقسم السكن، فطلبوها منهم ولكنها تأخرت كثيرًا، حتى انزعج الوالد وطلع إلى الغرفة فأحضر أوراقه مرة أخرى، وسلمها لهم ليعملوا في صنع قلادة لكلينا، وطلبوا الحضور بعد مدة لتسلمها، فصارت الساعة العاشرة صباحًا.

شارة ضيوف الرابطة

وتحللنا من العمرة في ذلك الوقت، وقد فاتنا وقت الفطور داخل مطعم السكن، فخرجنا نبحث عن لقمة تسدُّ رمقنا، ولكن لا مطاعم قريبة هناك، فلم يحلَّ الحجاج في منى بعد، فاكتفينا بعصائر وشيء من الكعك، ثم صعدنا لننام بعض الوقت، قبل أن يحل وقت صلاة الظهر.

ولما حان وقت الحافلة للذهاب إلى الحرم عصرًا، شعر الوالد بإرهاق، فلم نتمكن من الصلاة هناك، فاسترحنا.

في **اليوم الرابع** من شهر ذي الحجة، شهدنا لقاءات وكلمات حافلة، حيث بدأ مؤتمر مكة المكرمة الخامس عشر، الذي تنظمه "رابطة العالم الإسلامي" في كل عام، وتدعو له علماء ومفكرين وخبراء من العالم الإسلامي، ويحضره ضيوف الرابطة مع ضيوف الملك وغيرهم، وبينهم مسؤولون كبار.

وكان موضوع المؤتمر: "الثقافة الإسلامية: الأصالة والمعاصرة".

مدخل المؤتمر في مقر رابطة العالم الإسلامي

تحركنا من مبنى الرابطة بمنى إلى حيث مقر إدارة الرابطة التي يقام فيها المؤتمر قبيل الظهر، وبعد أداء الصلاة جماعة هناك، تُليت آيات من كتاب الله من سورة الأنفال، ثم أُلقيت كلمات رسمية، بدأها رئيس جامعة الأمير عبد القادر الجزائري الإسلامية الأستاذ عبدالله بوخلخال، وهي كلمة نيابة عن المشاركين، تلاه الأمين العام للرابطة الأستاذ عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سابقًا، مؤسس ووزير الأوقاف. ثم كلمة مفتي المملكة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ، الذي تسلَّم مهمة الإفتاء بعد وفاة العلامة عبدالله بن باز، وأخيرًا كلمة الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود، ألقاها عنه ابنه مشعل أمير مكة المكرمة، وركز فيها على نبذ الإرهاب.

أمين الرابطة، وأمير مكة، والمفتي

انتهت جلسة الافتتاح، وعدنا إلى المبنى مرة أخرى، والمسافة بين المبنيين نصف ساعة بالحافلة، دون زحام يذكر يومها.

وكان عنوان الجلسة الأولى (في اليوم نفسه): "الثقافة الإسلامية: المفهوم والخصائص"، تكلم فيها الأستاذ مفرح بن سليمان القوسي – وهو أستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – عن موضوع "رؤى في تأصيل الثقافة"، وذكر في حديثه أن مصدر الثقافة الإسلامية من كتاب الله وسنة رسوله.

ثم تكلم الأستاذ عارف علي القره داغي، وهو أستاذ في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا – وأصله من السليمانية بالعراق – عن "مقومات الثقافة الإسلامية"، وردَّ على شبهات حول الإسلام.

ثم تكلم الأستاذ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، وهو الأمين العام لجامعة عبد الله ياسين بموريتانيا – وهي جامعة أهلية حديثة – عن "عولمة الثقافة الإسلامية"، عرَّف فيها العولمة، وقال إنها محاولة لفرض ثقافة على ثقافة أخرى، وفرَّق بين العولمة والعالمية، وكان كلامه واضحًا مفيدًا.

وبعد انتهاء الجلسة، دعانا الأمين العام للرابطة إلى العشاء، وكان العدد نحو مئة شخص أو أكثر، وكنتُ أصغرهم جميعًا. وكان عشاء فاخرًا متنوعًا، فيه مأكولاتٌ بحرية لم أرها من قبل! وقد تلذذنا بألوانها وأشكالها قبل طعمها، وقمنا حامدين شاكرين.

وبمجرد أن قام الوالد من العشاء، تقدم إليه أحد الشباب، ليلقي كلمة في قناة مكة التلفزيونية عن "توحيد الخالق ووحدة الخلق" لمدة قصيرة. وذكر أنه لم يكن مهيأ لذلك، فطلب حذفه من بعد.

وقمنا بجولة في معرض أقامته الرابطة حول أنشطتها العالمية وإداراتها، أقامته على هامش المؤتمر.. وحملنا منها مجموعة من الكتب والمجلات العلمية المفيدة.

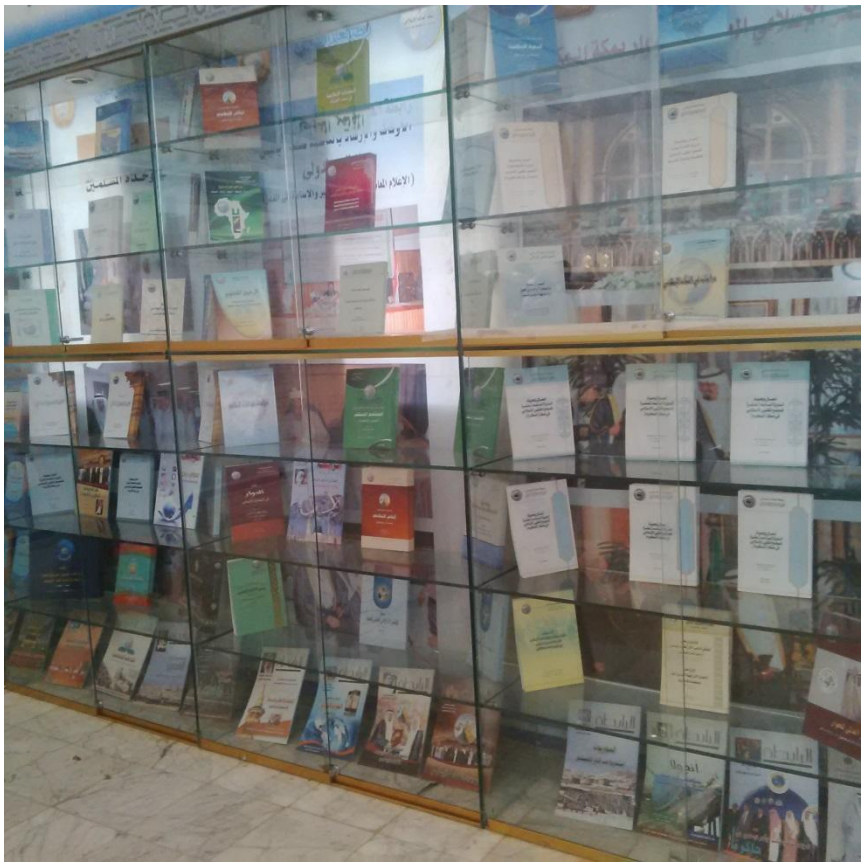

أقامت رابطة العالم الإسلامي معرضًا لأنشطتها على هامش المؤتمر

وعدنا إلى السكن في العاشرة أو ما بعدها.

في **اليوم الخامس** من شهر ذي الحجة، انطلقنا صباحًا لنتابع جلسات المؤتمر، وإلقاء بحوثه في يومه الثاني، وقد خلت الحافلة من سيارة مرور تتقدمها هذه المرة، لأن المراسم انتهت أمس.

وفي كل مرة نذرع فيه شوارع مكة نرى جبالًا عالية تحيط بها، وحجاجاً متناثرين بثيابهم البيضاء كقطع الثلج في كل الأنحاء، ومركبات لنقلهم، وأسواقاً ممتدة، وشركات ومؤسسات نشطة، وحواجزَ وجسورًا طويلة، وكثيراً من رجال المرور والشرطة والجيش بأزيائهم العسكرية المختلفة، وأنفاقًا عميقة وطويلة تخرق الجبال، وبنايات وقصورًا وفنادق شاهقة، وسيارات الأجرة التي لا تقف، فهذا موسمها المفضَّل.

"وفي كل مرة نذرع فيه شوارع مكة نرى جبالًا عالية تحيط بها...

وحجاجاً متناثرين بثيابهم البيضاء كقطع الثلج في كل الأنحاء"

ولا تكاد تجد حيوانًا شاردًا في الشوارع كلها، إلا طيورا تبحث عن مكان لها بين أشجار على الطرقات، يذهب صدى زقزقتها بين ضجيج الناس وأزيز محركات السيارات.

وصلنا إلى قاعة المؤتمر، وكان العدد الموجود قليلاً، ثم ازداد، ولكنه ربما لم يصل إلى أكثر من خمسين شخصًا.

جلسة أخرى من المؤتمر

وأثناءها طلبوا من الوالد أن يخرج من الجلسة ليشارك في صياغة توصيات المؤتمر، حيث كان أحد أعضاء لجنتها، إضافة إلى خمسة آخرين، ومقرر.

وكان الوالد حريصًا على أن يصحب معه ملاحظاته على توصيات المؤتمر، التي أُرسلت إليه وهو في الرياض، فلم ينسها، ووضعها أمامه في الحافلة حتى تكون أمام عينيه، ونزلنا، ولكن قبل أن ندخل القاعة قلت لوالدي: أين ملف توصيات المؤتمر، ففوجئ وقال: نسيتها في الحافلة.

ومضيت أركض لأصل إليها قبل أن تعود، ولكن فقدناها وفقدنا أثرها. فرجع الوالد وقال لأحد سائقي الرابطة القصة، فقال: أبشر، سأعيدها إليك وأجلبها لك وأنت في القاعة.

فمضينا، وحضرنا جلسات المؤتمر، ولم تمرَّ ربع ساعة حتى كان الملف بين يدينا.

وكان محور الجلسة: "الثقافة الإسلامية: الواقع والتحديات"، والمتحدثون ثلاثة، هم: محمد إبراهيم الشربيني صقر، أستاذ بكلية بهانج الإسلامية في ماليزيا، وكان موضوعه: "الغزو الثقافي والهزيمة النفسية".

والمتحدث الثاني: محمود الذوادي، أستاذ علم الاجتماع في الجامعة التونسية، وكان موضوعه: "الفرقة والصراع والتعصب"، وتعرَّض أثناء حديثه إلى أهمية اللغة العربية في الثقافة الإسلامية.

والمتحدث الثالث: نور الدين بولحية، وهو أستاذ في جامعة الحاج لخضر بمدينة باتنة بالجزائر، وكان موضوعه: "الجهل والتخلف وغياب المرجعية"، وقد تحدث فيه عن أهمية التخلص من المعلومات الخاطئة في التراث والكتب بشكل عام.

وكانت المداخلات في هذه المرة كثيرة، وبعضها طويلة، أخذت نصيب الآخرين في التعليق والملاحظة.

ثم كانت الجلسة الثالثة في اليوم نفسه، وكان المتحدثون ثلاثة أيضًا، وهم: محمود عطية، أستاذ في جامعة قطر، وكان موضوعه: "معايير قبول المتغيرات الثقافية".

والمتحدث الثاني: محمد زرمان، أستاذ التعليم العالي بجامعة باتنة في الجزائر، وموضوعه: "العلاقة بين الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى".

والمتحدث الثالث: حسن مسكين، أستاذ المناهج وتحليل الخطاب في جامعة شعيب الدكالي بالمغرب، وموضوعه: "الإعلام والأزمة الثقافية".

وقبيل إغلاق الجلسة، أعلن عن موضوعات بحوث الجلسة التالية مساءً، واسماء أصحابها.

وخرجنا لنصلي صلاة الظهر، يؤمنا فيها أمين الرابطة، ثم رجعنا إلى السكن للغداء وشيء من الراحة، ثم انطلقنا إلى القاعة مرة أخرى لحضور الجلسة الرابعة، وهي بعنوان: "نحو ثقافة واعية"، وكان المتحدثون أربعة:

المتحدِّث الأول الشيخ عبد الرحمن السديس، الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، وكان موضوعه: "قراءة في كلمات خادم الحرمين الشريفين وأثرها في بناء الثقافة الواعية".

والمتحدث الثاني: أنور زناتي، أستاذ في قسم التاريخ بجامعة عين شمس، وموضوعه: "الاتصال الثقافي بين الشعوب والمجتمعات الإسلامية"، وقد فصَّل فيه تاريخ الثقافة الإسلامية.

والمتحدث الثالث: عبد الستار الهيتي، أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة البحرين، وموضوعه: "التنوع الثقافي ووحدة الأمة الإسلامية".

والمتحدث الرابع: أحمد عيساوي، أستاذ بجامعة الحاج لخضر في الجزائر، وموضوعه: "كيف نبني ثقافة واعية"؟

وكان شقيقي أنس قد سلمني مجموعة نسخ من كتابه الرائع: "10 أيام في البرازيل" الذي دوَّن فيه رحلته الدعوية له إلى هناك، فوزعتها على أساتذة وباحثين قادمين من الخارج، ممن شاركوا في المؤتمر.

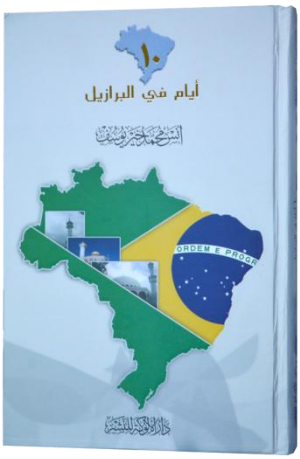

كتاب (10 أيام في البرازيل) لشقيقي أنس، صحبت مجموعة نسخ منه معي إلى الحج لتوزيعها

في هذا اليوم، **السادس من شهر ذي الحجة**، كانت إدارة السكن حريصة على حضورنا آخر جلسات المؤتمر وتوصياته، فأعلنوا الموعد ثلاث مرات، في كل مرة يقدمون الوقت أكثر، حرصًا منهم على ذلك، فوصلنا إلى إدارة الرابطة قبل الموعد بنحو ساعة، وكان رئيس الجلسة رئيس شؤون الحرمين، والمشاركون في الحديث ثلاثة، بينهم الوالد، وكان أول من ألقى الكلمة، وموضوعه: "التوجهات الثقافية في العالم الإسلامي"، وقد قرأ مقتطفات من بحثه لمدة ربع ساعة فقط، وركز فيه على الثقافة غير الإسلامية، وخطرها على المجتمعات غير المسلمة، وطرح في آخر حديثه، مشروع "الجمعية العالمية للكتاب الإسلامي"، وقد سبق أن دعا إليها دون أن تتبناها جهة عالمية.

أما المتحدث الثاني، فكان رياض العيلة، وهو أستاذ في فرع جامعة الأزهر بغزة، وموضوعه: "الحوار الثقافي العالمي ومآلاته".

والمتحدث الثالث: حسني حمدان الدسوقي، أستاذ بكلية العلوم في جامعة المنصورة بمصر، وقد تكلم عن الإعجاز العلمي وأهميته.

وبعدها كثرت المداخلات والتعليقات، معظمها على كلمة الوالد، ثم استراحة قصيرة، واجتمع إثرها المؤتمرون والحاضرون لقراءة توصيات المؤتمر والاستماع إليها، مع كلمات أخيرة لأمين الرابطة، ومفتي السعودية، وخطيب المسجد الأقصى محمد سلامة.

خطيب المسجد الأقصى، مفتي السعودية، أمين رابطة العالم الإسلامي

وذكر أمين الرابطة في كلمته أنه لم يتوقع هذا الاهتمام الكبير بالثقافة الإسلامية، سواءً من المحاضرين أم المؤتمرين، وأنه يدل على حيوية الموضوع وأهميته، وانتهى المؤتمر.

ولما كان العزم موجودًا للذهاب إلى الحرم، جاء صديقنا المغربي وذكر أن هناك صعوبة في الرجوع، ولا يسمح لكل السيارات بالدخول في الأنفاق، فأثر ذلك في عزمنا، وبقينا نتردد إلى مصلى الرابطة، نقرأ وندعو.

وأصابني شيء من المرض، وكذا الوالد، فمررنا على الطبيب، وأسعفنا ببعض الأدوية، ثم خرجنا في جولة إلى الشارع، ومنه إلى مسجد الخَيف، الذي يسع لـــعشرات الألوف من المصلّين.

وقبل أن يهلَّ فجر **اليوم السابع** من ذي الحجة بساعتين، أفقت مع والدي على صياح وتكبيرات الساكن معنا في الغرفة، وقد فزع في النوم، وسمعته يقرأ آية الكرسي كاملة بصوت عال وهو نائم، وسمعه والدي وهو يكبر تكبيرات متتالية بصوت عال جدًّا، وقام بعد ذلك، ونظر إلينا جميعًا، فرآنا ننظر إليه متعجبين، ثم نام مباشرة، وحاولت أن أنام أيضًا، أما الوالد فظن أنه بقيت ساعة واحدة للفجر، فتوضأ ومضى إلى مسجد الخيف يتعبد هناك.

وفي ضحى اليوم قرأت في كتب الحج، وتعلمت منها فوائد وأحكامًا تفيدني في حجتي وفي ديني، والوالد يكتب في بطاقات صغيرة، ربما تغريدات، ومواد لصفحته على الفيس بوك.

الوالد يكتب.. كلمات في بطاقات.. وهو في مسجد الخيف

وذكر صديقنا أن ما حدث له في النوم حالةٌ تعتريه أحيانًا بعد دخول لصوص بيته.

ثم انطلقنا قبل الظهر بساعة إلى مسجد الخيف القريب منا، فرأيته واسعًا كبيرًا، وكان نظيفًا مكيفًا مرتبًا هادئًا، قبل أن يمتلأ بالحجاج، وبقينا هناك نقرأ وندعو.

مسجد الخيف من الداخل

صورة لمسجد الخيف، من السكن

وكنت قد جلبتُ معي جزءاً من تفسير الوالد أتمُّ قراءته، وأسير فيه بتؤدة، وقد وصلت فيه حتى الآن إلى سورة إبراهيم.

كما قرأت كتبًا أخرى للوالد عليه، وخاصة في شهر رمضان، مثل كتب: يا بني، هكذا علمني الإسلام...

كما قرأت عليه القرآن كاملاً، على مدى ثلاث سنوات، في شهر رمضان، وفي المسجد الحرام، وفي بعض الإجازات، بل قرأ نصفه وتابعته بالقراءة، ولما رأى تمكني منها كنت أقرأ فيصحح إذا لزم. وكنت الوحيد بين أولاده ممن قرأ عليه كامل القرآن، كما قرأت أكثر من نصفه في حلقاتِ التحفيظ، وسائر إخوتي قرأوا في الحلقات وبعضها عليه، حتى ختموه. كما قرأت عليه تفسير آية من كل سورة من تفسيره. وأجازني برواية جميع كتبه.

وقد بدأت المحلات تفتح في كل مكان بمنى، واتسعت فيها حركة الحجاج.

والمبنى الذي نقيم فيه كبير وضخم، فيه إضافة إلى المكاتب الإدارية لاستقبال وتسيير أمور الحجاج السكنية والمرورية:

غرفة خاصة فيها طبيب وعنده أدوية.

وغرفة أخرى فيها مشروبات ساخنة.

وغرف عديدة للخدم والعمال.

ومطعم جيد، يقصده الحجاج في فطورهم وغدائهم وعشائهم، على حساب الرابطة.

ومأكولاته معروفة في الحجاز خاصة، من رز وإدام ولحم وسلطة، ثم فواكه وعصائر.

وفي بهو المبنى خزانة صغيرة توضع على رفوفها كتب خيرية لتوجيه الحجاج وتثقيفهم، إضافة إلى كتب في العقيدة والسلفية.

ومعاملة العاملين فيها طيبة وإيجابية ومحترمة.

وصباح هذا **اليوم الثامن**، وهو يوم التروية، يجتمع الناس في منى، وخاصة في مسجد الخيف، لينطلقوا في الغد إلى عرفات.

وفي ضحى هذا اليوم، نزعنا ثيابنا المخيطة، واغتسلنا، ولبسنا لباس الإحرام، ولبَّينا وحمدنا ربَّنا، على ما وفقنا لحجِّ بيته.

وقيل لنا: أن هناك محاضرة تنتظركم بعد العصر، فدخلنا القاعة وبقينا نحو نصف ساعة و لم يأت المحاضر، فقدَّموا الأستاذ حسني الدسوقي متحدِّثًا عن العلم في القرآن. وقالوا: إن المحاضر سيكون موجودًا بعد المغرب، فدخلنا القاعة مرة أخرى، ولكن المحاضر لم يحضر حتى كدنا أن نقوم، لكن جاء الشيخ خالد المصلح وألقى محاضرة.

وقد قدمنا الفدية أنا ووالدي للبنك الإسلامي للتنمية، يعني فدية حجة التمتع، وهي شاة، وقيمتها (490) ريالاً، قبل أن يزدحم الناس على مكاتبه.

ويوم عرفة، التاسع من ذي الحجة، كان يوم الجمعة. ولا تقام صلاة الجمعة في المشاعر؛ لأنها غير مسكونة.

فتوى بأربع لغات معلقة في مسجد الخيف تبين عدم صحة صلاة الجمعة في مساجد المشاعر

ركبنا الحافلة بعد الفجر، لننطلق من موقعنا في منى إلى حيث عرفات. ووزعوا علينا الفطور ونحن في الحافلة.

وصلنا بعد نحو ساعة أو أقل، ودخلنا مخيمًا كبيرًا، في آخر حدود عرفات، وكان فيه أكثر من (500) خيمة، وأقسام خاصة للنساء، وفي الوسط دورات مياه ومواضئ رائعة، ومصلى كبير، وصالة طعام واسعة، وخيمة مستطيلة مفتوحة فيها أنواع العصائر والمشروبات الساخنة، وفي كل خيمة مكيف صحراوي وثلاجة، وهي مفروشة، ويسكنها أربعة أو خمسة أشخاص.

وامتلأ المصلَّى بالحركة، كلٌّ يقرأ القرآن، ويدعو، ويذكر الله.

وفي وقت الضحى حضر الأستاذ عبد الله بن عبدالعزيز المصلح، الداعية والكاتب المعروف، الأمين العام للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي، وألقى محاضرة قيمة، ومما ذكر فيها قوله صلى الله عليه وسلم: "**أفضلُ الدعاءِ دعاءُ يومِ عرفة**"، و"**أفضلُ أيامِ الدنيا أيامُ العشر**". والأول مرسل حسن، والآخر صحيح، كما في صحيح الجامع الصغير.

واستفاد منها المستمعون، وكانت تترجم المحاضرة إلى الإنجليزية في آخر المصلَّى. وفيه لوحة إعلانات إلكترونية، وتنقل الخبر على الهواء. ورأينا من خلالها المفتي وهو يلقي خطبة طويلة في مسجد نمرة، ولكن صوته كان مبحوحًا، وأطال، في كلام طيب.

لقطة من المشاعر

وأُعلن في اللوحة بعدَ أداء صلاة الظهر قصرًا وتقديم العصر، أعلن عن استقبال أمين الرابطة لضيوفها في صالة الطعام. وكان طعامًا لذيذًا رائعًا، وقد عولج فيه الأرز المطبوخ وقزِّح بأنواع البهارات حتى صار أخضر داكنًا وكأنه عكر زيت الزيتون. وعليه لحم كثير، وهذا في كلِّ سفرة، وأسفلها يتلألأ من آثار الشحم... مع الفاكهة والمشروبات الغازية.

استرحنا قليلاً في الخيمة، وكان معنا اثنان من بلاد الحرمين، أحدهما يبدو أنه كان له اهتمام بشؤون المعلومات والتأليف، والآخر مهتم بالعلم الشرعي.

وبعد قليل ذهبنا إلى المصلَّى مرة أخرى، وأكثرنا من القراءة والدعاء، طلبًا للأجر والثواب، في هذا اليوم العظيم، والربُّ يترل – كما يليق بجلاله – "**إلى السماءِ الدنيا، فيُباهي بأهلِ الأرضِ أهلَ السَّماء**"، كما في صحيح ابن حبان.

مصلى كبير في مخيم الرابطة بعرفات

وقبل المغرب بساعة طلبوا صعود الحافلات استعدادًا للانطلاق إلى مزدلفة، فبقينا فيها ساعة، كما بقينا فيها بعض المرات أكثر، وفي مرة بقينا ساعة وثلث الساعة! وهو لحرص المسؤولين على أن تكون الأمور جاهزة؟

ركبنا حافلتنا، ولم نستعمل قطار المشاعر، لأننا قريبون منها، وقد توقفت الحافلة مرات، للازدحام الكبير في شوارع عرفات، من الناس ومن السيارات الكبيرة والصغيرة. ووصلنا إلى مزدلفة بعد ساعة أو أكثر.

نزلنا في ساحة واسعة مخصصة لضيوف الملك، مظللة، كعرْصَة، أو خيمة كبيرة، وبها دورات مياه، والمكان مفروش كله، يكون مسجدًا ومكانًا للجلوس، وهو مفتوح من جهاته الأربعة، ولكنه مسيَّج، حتى لا يدخله غير المصرَّح لهم. وتوزع الناس في هذه الساحة، والجو لطيف، والمشروبات الساخنة في مكان قريب، يقصده ويشرب منها من شاء. جمعنا المغرب والعشاء، وتعشينا.

مخيم الرابطة وضيوف الملك في مزدلفة

وقد شرَّفنا الشيخ مجد مكي، الكاتب المحقق، فكان هو والوالد يتباحثان في شؤون العلم والدعوة والكتب، وأنا أستمع إليهما، ثم وصل الأستاذ منقذ السقار، الذي يعمل في إدارة المؤتمرات بالرابطة، وهو حاصل على الدكتوراه في مجال مقارنة الأديان من جامعة أم القرى. وطلب الشيخ مجد أن أتصوَّر معهما.

وأحببت أن أجري مع الشيخ مجد لقاء، وأضع محتواه في هذا الكتاب، فرحب بذلك، وطرح عليه الوالد الأسئلة.. لكنه استدرك على نفسه، وربط الإجابة عنها بحصوله على كتابٍ للوالد (الطبعة الثالثة من تتمة الأعلام) وأنني المسؤول عن تأمينه، وإلا لم يجب عن الأسئلة! فضحكنا... وكان من الممكن الحصول على نتيجة هذا اللقاء بالبريد الإلكتروني، ولكني لم أتابع الموضوع.

مع الأستاذين مجد مكي ومنقذ السقار في مزدلفة

وخُيِّر الحجاج في الساحة بين الانطلاق إلى الجمرات بعد منتصف الليل، ومنها إلى الحرم، وبين انطلاقهم بعد الفجر إلى الجمرات دون الحرم.

واخترت مع الوالد الذهاب بعد منتصف الليل، ونزلنا عند جمرة العقبة الكبرى نفسها، فرمينا فيها سبع حُصيّ.

جمرة العقبة

ووصلنا إلى الحرم ربما في أقلَّ من ساعة. وأراد الوالد أن نطوف بالبيت طواف الإفاضة في الدور الثاني، ولكن المشرفين على تنظيمه وضعوا حواجز طويلة للصعود إليه، ولما وصلنا مُنعنا، وقال العسكري: إن الطواف في الدور الثاني للعربات فقط، يعني للمعوقين الذين يُطاف بهم بالعجلات. ورأينا أكثرهم، بل معظمهم أشخاصًا عاديين يطوفون. فطفنا بالبيت ربما في نحو نصف ساعة أو أكثر بقليل، إذ لم يكن بدأ الازدحام بعد، فقد وصلنا قبل كثير من الناس إلى هناك.

وصلينا بعد الطواف قريبًا من مصلى إبراهيم عليه السلام، ودعونا، ثم إلى المسعى، لنسعى بين جبلي الصفا والمروة سبعة أشواط، وقد بقي ربع ساعة لموعد الحافلة، وكان الوالد قد سأل السائق أين يكون؟ فقال إنه لا يعرف، فقد أوقفه المرور في مكان، وربما يوقفه في المرة القادمة في مكان آخر.

وبعد انتهاء الطواف والسعي ضاع الوقت بين البحث عن السائق في مكانه السابق، وبين موقف الحافلات. ولم يجد الوالد نعله في مكانه، فكان يمشي حافيًا، أو أتبادل وإياه ما أنتعله، ولا يجد موضعًا قريبًا يشتري فيه نعلاً.

اضطررنا إلى استئجار سيارة خاصة لنذهب إلى منى حيث السكن، وذكر السائق أنه يعرف المكان – ولم يكن من أهل البلد – ثم كان يسأل عن الموقع. وبقينا نحو ساعة ونصف الساعة في السيارة من الزحام، وأخيرًا قيل له إن المرور لا يسمح بمرور السيارات الصغيرة إلى منى. وطلب منا أن نترل عند السلالم الكهربائية القريبة من الجمرات، ومنها نتحول إلى سكننا.

وعندما وصلنا إلى هناك منعنا العسكري من الصعود، وقال: السلالم مغلقة، وما عليكم سوى المضي إلى الجسر الذي تسير فيه الحافلات وتنقل الحجاج إلى الجهة الأخرى، ومنها تذهبون إلى منى.

فانطلقنا مشيًا حتى وصلنا إلى الجسر، وكان قد أُذِّن الفجر، ولم نجد مسجدًا هناك نصلي فيه، وقد جفَّ حلق الوالد وتعب، ولا ماء هناك.

أرشدنا العسكري إلى أن هناك نفقًا يجب أن نمشي فيه حتى آخره، ونتحول إلى اليسار، وهناك يكون السكن، القريب من مسجد الخيف.

فصليت الفجر مع الوالد جماعة، ودخلنا النفق حتى تجاوزناه، ولم يكن طويلاً، وشربنا الماء.. وطلعت الشمس...

رأينا المبنى، ولكنا أردنا أن نحلق لنتحلَّل. فما وجدنا حلاقًا هناك، وإنما أشخاص يحلقون عند دورات المياه، فلم يعجبنا عملهم، خشية انتشار أمراض... فمضينا إلى صيدلية قريبة، واشترينا منها مقصًا، واكتفينا بالقصر، ثم عدنا إلى السكن، والوالد متعب مرهق... وكان يومًا طويلاً... ذهبنا فيه إلى عرفة، ومزدلفة، والجمرات، وطفنا، وسعينا، وقصَّرنا، بفضل الله وتوفيقه.

إنه **يوم العيد**. فطرنا، ثم اغتسلنا، ونمنا نحو ساعتين، وأفاق الوالد وقد فقد صوته، وكان قد أصيب بالزكام منذ يومين أو أكثر، فاستهل يوم العيد بالذهاب إلى الطبيب، وقاس السكر عنده فكان مرتفعًا، وأُعطي أدوية متنوعة. ولم يُجب الوالد على أحد من مهنئيه من الأهل في هذا اليوم، لعدم قدرته على ذلك، بل كنت أجيب عنه.

وما كانت هناك صلاةُ عيدٍ في المشاعر، إذ لا تجب على الحاج، وإذا حضرها فيؤجر.

وقبيل الظهر، دُقَّ باب الغرفة، فإذا بشباب يوزعون هدايا العيد، كلٌّ له صحن بسكوت، أو كعك.

وزادوا في الغداء بالمطعم يوم العيد، ولم تتغير أنواعه.

وأعلن عن ندوة بعد المغرب في قاعة السكن نفسه، في موضوع القدس والمسجد الأقصى، تحدَّث فيها اثنان: واحد أصله من فلسطين، وآخر من المغرب، وكان يديرها واحد بمرتبة وزير...

والتقينا بعد العشاء بالأديب الداعية عبد الحميد ضحا من مصر. وهو صاحب تاريخ في الدعوة، وله آثار أدبية طيبة، ونشاط في الشبكة العالمية للمعلومات، وبدا كأنه في سن الشباب، نشيطًا، حيويًا، وكان مؤدبًا رزينًا.

وفي أول أيام التشريق فاتتني صلاة الفجر جماعة، وذكر الوالد أن الأستاذ الداعية عبد الله المصلح ألقى كلمة بعد الصلاة، ثم أجاب عن الأسئلة حتى أشرقت الشمس، وبدا كثير الدعابة هذه المرة، منها قوله: من عرف جواب هذا السؤال أعطيته ريالا بعد (150) سنة! وكان يقول في ندائه: يا أحبابي ويا إخواني، وإذا تكلم أحد الأعاجم بالفصحى تهلَّل وجهه واستبشر وأثنى عليه وعلى فصاحته.

وقبل الظهر بساعة ونصف الساعة عُقدت ندوة عن "الفكر الإرهابي"، شارك فيها الأستاذ مجد مكي، والشيخ محمد يسري إبراهيم، وهو من علماء الأزهر.

الأساتذة: مجد مكي، سعد الشهراني، محمد يسري إبراهيم، في ندوة

وبعد انتهائها تعرفنا على الأستاذ الشيخ سعد بن علي الشهراني، الأمين العام للهيئة العالمية للعلماء المسلمين، أستاذ العقيدة بجامعة أم القرى، وقد سلَّم على الوالد ورحَّب به وأثنى على كتبه، وسلَّمه الوالد "مشروع الجمعية العالمية للكتاب الإسلامي" ليعرضه على هيئة العلماء، عسى أن تتبنى المشروع، وقد قال له الوالد: إن هذا المشروع قد أخذ بمجامع قلبي، وأنه مهم وضروري للمسلمين، فإن الكتاب أكبر وأشهر وسيلة لحمل العلم، وهو ليس منظمًا في بلاد المسلمين...

وذكر أنه سيعرضه على الهيئة قريبًا.

وعلى مائدة الغداء سلَّم علينا أحد الأساتذة، ولما خرجنا سلَّم على الوالد مرة أخرى، وعرَّف بنفسه، وأنه أستاذ في جوهانسبرج، ومتجنس بجنسية جنوب أفريقيا، وهو من مصر، وأصله من الشام.

قال: وقد درس أربعة إخوة لي في الأزهر، وأنا تخصصت في الترجمة. وذكر أنه ترجم القرآن كله إلى الإنجليزية، وهو مطبوع، كما ترجم مقالات للشيخ الشعراوي، وما إلى ذلك.

قال: وقد أسلم على يدي أكثر من (2000) شخص. ولما قال ذلك قبَّل الوالد رأسه وأكبر عمله الدعوي.

وذكر أن مهمته لا تزيد على كونه موظف استعلامات، فربما كان يوزع النشرات والكتب الإسلامية، وأن مهمته وغيره في ذلك توضيح العقيدة الإسلامية والتركيز عليها.

وقال: إن البيئة هناك لا يصلح معها الجدال، فالدعوة بالحسنى أفضل. وعرَّض بذلك لأسلوب الشيخ أحمد ديدات رحمه الله.

وبعد العصر عزمنا على المضي إلى الجمرات لنرمي في الثلاثة: الصغرى، والوسطى، والكبرى.

وقد صحبنا إلى هناك الأستاذ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، الذي سبق ذكره، فتحدث مع الوالد عن شؤون العلم والعلماء والكتب والكتّاب في موريتانيا، وكان حديثا مشوِّقا..

وكنا قد تركنا كيس الأحجار في الحافلة التي تركتنا، أو تركناها، فأردنا أن نبحث عن الحصَى في الشارع، فذكر مرافقنا الأستاذ أنها موجودة عند الجمرات، فمضينا، وقلنا بأننا سنتفرق عند البحث عن الحصى، ونجتمع في المكان الفلاني، وبقينا نحو ربع ساعة نجول في حوالي الجمرة فلم نر حصى واحدة، ولم نلتق بالأستاذ بعدها.

وقد نزلنا في آخر الجمرة الكبرى فلم نعثر على الحصى، ربما لسببين:

الأول: أن التوسعة قرَّبت الحجاج من موضع الرمي، فصاروا يرمون والحصى تقع في الحفرة مباشرة، ولا يكادون يخطؤون، بينما في السابق كان الناس يرمون من بعيد نتيجة الزحمة، فتقع الحصى حواليهم.

والثاني: أن هناك من كان يجمع الحصى، مثلنا.

كما لم نجد الحصى في الساحة التالية للجمرة الكبيرة، أعني آخرها، فقد سوِّيت بالإسمنت والبلاط، ونظفت، فانتقلنا إلى شارع قريب من جبل لنجمعها، وكانت أطراف الجبل قد عولجت أيضًا حتى لا تنزل منها أحجار على الحجاج.

ثم إنه نزل مطر لعدة دقائق، فحمدنا الله تعالى على نعمته، وازدادت الرطوبة، وتعرَّق الناس..

جمعنا العدد الكافي من الحصى، وعدنا من جديد إلى الجمرة الصغرى، ومنها إلى الوسطى، فالكبرى، ونحن ندعو الله تعالى بعد كل رمي.

وبعد الانتهاء منها كان علينا أن نعود مرة أخرى إلى حدِّ الجمرة الصغرى، لأن المنفذ من هناك إلى السكن، فوصلناه وقد خرج الناس من صلاة المغرب، فصلينا مع جماعة أخرى، ثم صعدنا إلى غرفتنا واغتسلنا من العرق الذي غطى جسمنا ونفذ إلى ثيابنا. والحمد لله.

وقد قال الوالد يومها: لو أن الحصى بيعت بخمسين ريالاً عند الجمرات لاشتريتها!

نهاية الجمرات

في **اليوم الثاني من أيام التشريق** ألقى الشيخ عبدالله المصلح كلمة بعد صلاة الفجر أيضًا، وأكمل فيه تفسير سورة العصر، أو جزءًا آخر منها، وأجاب عن أسئلة الحاضرين، وخاصة عن رمي الجمرات وطواف الوداع، حتى طلوع الشمس.

ومما استفيد منه أن منى توسعت إلى خارج حدودها، وأجاز العلماء ذلك إذا امتدت الخيام من حدودها إلى الخارج، قياساً على صفِّ الصلاة إذا امتدَّ إلى خارج المسجد.

وقبل أن نمضي إلى رمي الجمرات بعد صلاة العصر، ذكر لنا أحد الإخوة أن معظم الحجاج قد نفروا، وقلَّت الزحمة بذلك كثيرًا، ورأينا آثار ذلك في طريقنا إلى الجمرة الصغرى، وأنهينا الرمي في ثلاثتها في ساعة.

وقبيل المغرب رأينا حشد الحافلات في الشوارع وهي تنقل الحجاج إلى مكة المكرمة للوداع، وبعضهم إلى المدينة المنورة للزيارة.

وهذا **ثالث أيام التشريق**، وهو آخر أيام الحج، وقد خيَّم السكون على المبنى الذي نحن فيه، إذ لم يبق فيه إلا قلة من الحجاج، ومضينا إلى إدارة العلاقات والحركة، وذكرنا للمدير أن سفرنا يكون غدًا الأربعاء إن شاء الله، وإقلاع الطائرة يكون الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، وكان اسمي واسم الوالد مدونًا عنده، فقال: إن سفركم إلى جدة سيكون في الساعة الخامسة فجرًا، واتفقنا على أن نمضي إلى الحرم الساعة الثانية عشرة ليلاً لأجل طواف الوداع.

ومضينا إلى رمي الجمرات بعد العصر، ورمينا بسهولة، في أقل من نصف ساعة.

ثم طفنا للوداع ليلاً، ومضينا إلى جدة فجرًا، وأقلعنا من مطارها قبل الظهر إلى حيث الرياض.

وحمدنا الله تعالى وشكرناه على نعمته علينا بأداء الحج.

وقال لي الوالد إثرها: أصبحت الآن "الحاج إبراهيم".

وأوصاني بأن أحجَّ عن أجداده إذا كتبت لي حجَّاتٌ أخرى، وخاصة عن جدِّنا "إسماعيل"، الذي له حقٌّ على الأسرة كلها.

صاحب الرحلة

وقد أملى الوالد عليَّ كثيرا من فقرات هذه الرحلة المباركة، وأبى أن يضع اسمه إلى جانب اسمي في التأليف.

وفيها أخباره أيضًا.

وكانت حركة الوالد هادئة ومحدودة في الحج، فكنت إلى جنبه.

و لم تكن سني مناسبة لزيارة الأساتذة والعلماء والمفكرين الذين يشاركوننا في السكن، كما أن الرابطة لم يكن في برامجها زيارات للضيوف إلى أماكن أثرية أو حضرية في مكة المكرمة، وعسى أن يُكتب لي المزيد من المشاهدات في حجات وعمرات تالية إن شاء الله، لأرى وأتعرف أكثر على أفضل بلاد الله.

وأنا أطلب "**رضا المولَى، في رحلة الحج الأُولَى**".

والحمد لله على فضله ونعمته.